

كتب جديدة

معلقة توفيق صاين

بقلم توفيق صاين . المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٣

فلسفة في الحياة ، فلسفة الحياة ، على نط مقصور عليه محصور فيه ، هو نط الوجدانية لا العقلانية !

وبعد ، فما « معلقة توفيق صاين » ؟ حلقة ثالثة في سلسلة نتمنى ان تطول ، بعد الحلقة الاولى « ثلاثون قصيدة » والحلقة الثانية « القصيدة ك » ؟ انها اكثر . ولرب قارئ سيري فيها حبة العقد او غلق القبة يوم يكتمل له ما لا يزال في المحتمل ، ويوم يعرف ان صاحبها ، اذا لم يكن من اسهل الشعراء ، فانه من اكثرهم طبعية . ولطالما تخدع الظهارة ! ثم ان هذه « المعلقة » تؤلف بين لوئين من الشعر : اللون المحمي (تتحرك ، وتندفع الى امام ، عارية في حركتها كأنها في زمن ابدى ، وكأنها منذ البداية ما ستكونه في النهاية) ، واللون الفجوعي (تتأزم الحلول ، دامية ، في صراع الجسد والروح ، في السقطة والفداء ، في الفذوذية والجاهلية) . وهي ، الى ذلك ، او لاجل ذلك ، ميتافيزيقية للحمة والاتجاه ، مسيحية في فجوعها كأن مسرحها بستان الزيتون ، وفي ما يعصف بها من محبة وراه الحب .

لنبدأ بالتزيينات على الهامش ، مقطعا مقطعا ، تحت قرن « الكركدن » عنوان القصيدة الاولى : - سنة الله في خلقه ان ذكراً وانثى خلقها : « وكل حيوان ... زوجان » . مشهد ناتئ كالنقوش النافرة ، وناطق كالشخوص على المنصة .

الكتاب - الحياة ما خطه قلم بعد رغم انه ، منذ البداية ، اشغولة الادباء والشعراء جميعا . فعبثا نفتش عن توفيق صاين ، بكليته ، في كتابه هذا ، اللهم الا اذا اكنفينا من المأساة بفصل واحد ، زاعمين ان الكل في الجزء ، متسلمين للحل الاسهل . معاذة وجه الله !

هذه النقطة الاولى ، الاساسية ، نقطة قصر الشاعر على بعض شعره ، اردنا جلاءها وتنحيها ، مخافة التضليل ، قبل الشروع بحفنة من التعليقات على هامش « معلقة توفيق صاين » . ذلك بان كلمة « معلقة » قد يكون من شأنها ادخال القارئ مداخل الغواية ، فظن ان زبدة صاحبها فيها كما هي الحال في المعلقات السبع او التسع . نقطة ثانية ننبه اليها ونحن في الاستهلال : لكي يرتفع الحديث في الشعر الى مستوى موضوعه وجب ان يكون شعرا . شأنه شأن السمفونية ، تشرح باعادة عزفها . لذلك لن تكون هذه المراجعة شرحا او عرضا او تحميلا ، بل ستكون ، كما قلنا ، تعليقات هامشية كالنمنمات او التزيينات في مخطوط قديم .

نقطة ثالثة : الشعر ، في علاياته ، جهد واجهاد يفضيان بالشاعر وبنا الى الرحر حان على القمم بعد عرق التصعيد . فما ابعدها هنا ، وفي كل شعر اصيل ، عن السهولة التي تدغدغ البشرة كالثوب الممار ، عن التنفس الذي لا يلهث ، عن القوالب البراقة التي قلبها من كرتون ! كأنما الشعر ليس

ونحت السير ثملين به اكثر منا بالهدف الذي نطارد به .
فاغماض المينين وصم الاذنين يجعلنا اكثر اغراء .
والمتعذر المثال هو الذي نهفو الى مثاله . من هنا
حبنا للاسطورة ، ومن هنا كانت النساء يفتحن
حصونهن الخائنة لهذا الراكض الذي لا يبالي ،
وكان هو يسرع اكثر فأكثر شطر التي لا تفتح
الحصون .

- الاغراء في الامتلاك هو اغراء في الاهلاك .
يطاردك الكون لانك نسيج وحدك ، وتطارد
حببتك القدسية لانك تصورتها نسيج وحدها ايضاً .
وكلا الطرادين في سبيل الموت . فالتناس يشفقون
من التفرد : من تفرد قتلوه ولو ذهنياً ، حكموا
عليه بالاسطورية . انهم ، منذ ان كانوا ، قطيع .
سنة الحياة سنة القصاب (لا فرق بين الوحوش
والفانصين) . كلنا الى الموت ، اي الى الانصاع
للسنة العامة .

- تاريخ الانسان تكرار لنفسه ، عود على
بده . ما نظنه عمودياً اغما هو افقي : « حياتك
وتيرة واحدة » . وكل شيء مكتوب ، اي منذ
الازل قررت العناية . فسينا الى تحقيق ماهيتنا
واجب علينا ، الا انه في الواقع عمل هراء . وما
من حب مجرد . ما من حب بشري في سبيل العبادة
وحدها . كلنا اثنائيون ، الا ان في الانانية
استمراراً للحياة . اعني للوجود لا للماهية . من
هنا العودة الى حضن الام ، فحضانها اقرب الى
الرحم ، الى البداية . على ان الام كسائر النساء ،
كالتناس جميعاً : تحبك لا لك بل لها ، لانانيتها ،
وبذلك استمرار النوع .

- ما من عذراء اشد عذرة من الام . واذا
قأول الطريق آخرها ، كقولها : ما كنت تفقش
عني لو لم تكن قد وجدتني . فسنة السعي في الحياة
دورية هي . وماذا وجدت في عذراك الام ؟
وجدت فيها كل ما كان بإمكانك ان تجده في
الحقيقة لا في الوهم ، في التجسيد لا في الفكرة
لمجردة . لم تجد اشعاعاً ولا بللاً ، بل صرت الى
ما صدرت عنه . اما هي ، الواقعية ، فقد عرفت

فما ابعدنا في الشعر عن التجريد الجامد في الفلسفة .
هنا جدلية حية ، جدلية الضدين الذين يموتان في
اجتماعهما (او مجامعتهما) سعياً وراء ايلاد قضية
لا تعتم ان تبحث عن نقيضها فتتموتان معاً ، وهكذا
الى ما يشاء الله . وحده الاله لا يبحث عن ضده ،
لذلك كان فريداً ، ولذلك كان اسطورياً ، يقول
بعضهم . فالجنس فينا اساس . وحده الاله وجد من
به يتكامل ، لامن به يفنى . وجد « المتعذرة الوجود » ،
العذراء الأم . اما الانسان فيقلب حيواناً اذا شاء ان
يصير ملاكا ، يقول باسكال . والذي يتبع سنة
الخالق في خلقه هو « مكتمل مكثف » . بحثك
كانسان عن « المتعذرة الوجود » تعذر هو .

- السعي هو المهم كما في الملاحم ، كما في
المأساة الاغريقية ، رغم ان كل شيء مقرر منذ
البده . النتيجة ثانوية اذا . وما دمنا نسعى فنحن
شبيهون بالله ، اذ ان الراحة في غيره موت . على
ان التشبيه بالله يجعل وجودنا خيالياً ، وهيباً ،
اسطورياً . وجودنا ام مبولنا ؟ المبول هي الماهية ،
وهي تابعة للوجود في الزمن ، سابقة له في القيمة .
« والسعي أحد : فكيف تختلف النتائج ؟ » :
تختلف لأن السعي نحو تحقيق الماهية هو في بده من
الوجود ، فاذا اختلف الوجود وافق السعي كانت
النتيجة مختلفة .

- العذرة فكرة لم يكن لها ان تتجسد فعلا
وتستمر فوق ازاحة الجسد الا في امرأة واحدة
هي « العذراء » . وكلها حاول تجسيدها وحيد
قون انقلب ذا قرنين ، اي اصبحت بشراً سوياً
ينسلك في قطيع الجماهير . ذلك بأنها جنس ، لا
اكثر ولا اقل . وهي كفر بوجه السماء لان من
انزلق مرة انزلق الف مرة فكان المهر في
التكرار . وكانت تجارة اللحم : « يفنن سيقانهم
كافرات بوجه السماء » .

- الهرب من الاثنى هرب اليها ، كأننا نقطة
الانطلاق هي نقطة الختام ، وكأننا هطرفا السعي
يلتقيان لا محالة . الا اننا نفنن المينين ونصم
الاذنين عما يعترضنا من تشويقات واغراءات ،

كما تعرفها الارض الزرعة . والحياة دائماً الى امام ،
امومة تتجدد على الدهر . ولا تكون الامومة الا
بالالام الذي يولد النشوة .

- سؤال ايضاً : « احسبتك ناسكاً وسيطاً »

قوته في عزله ؟ ليست البطولة في الهرب بل في
مواجهة الصعب والتغلب عليه . لقد واجهت المرأة
في فراشك « نعشها » ، واغرزت فيها اظافر
العقل ، وحسبت انك نجوت من شبق الجسد لانها
امك التي ليست لتضاجع ابنها . الا انك تجهل
سلطان الجسد ، وسلطان المرأة !

- المشرق في الاختلاف لا في الاتفاق . فالقضية
تعشق النقيضة في سبيل التأليف (جدلية) . انت
مجهول وامك معروفة لذلك عشقتك اسطورة غير
معكوسة ، اي الها يخلص لا مسخاً يطلب الخلاص
لنفسه . تبا لاله هو بحاجة الى سقفة البشر (تكون
الاسطورة عندما ترتفع الى مستوى النموذجية .
والا فبطلها مسخ !)

- المعرفة هي بدء التحقيق : معرفة الخير
والشر في التوراة هي بدء تحقيق السقطة . واننا
كبار لا بما نعرف ونكتفي به ، بل بما نجهل ونتوق
الى معرفته . فامك اكبر منك ، هنا ، لانها تجهل
ارتياحك ، وانت اصغر منها لانك تعرف اضطرابها
(اليس الاضطراب ام من الارتياح ؟) . والمرأة
لا تفهم . بل تحس . لقد جعلت فهمك ينقلب
احساساً ، اي يتجسد ، فاذا يجسدك يفيق . واستفاقة
الجسد هي ادخال في عداد القطيع البشري ذي
القرنين : « وقام لقرنك قرن صغير مواز » . ثم
فضحك لهاك ! فالتعفف ، بحذ نفسه ، موت لانه
لا ينجب حياة . اما انجاب الحياة فانه موت
للتعفف ، اي للتفرد .

- لهاك فضحك رغم بسمتك المارة . فقلبت
امك الدور : لم تكن البادية بل كانت البادية !
واذا كانت الغلبة دائماً للجسد في صراعه مع الروح ،
فلنكن جسداً ، ولنكن غالبين ، بما ان الغالب
والغلوب يموتان . ولنتبع سنة الخالق في خلقه ،
لان التفرد ، هنا ، هو سخرية وفهقة بقم القدر :

ما تلاقى فيك : اللذة التي خبرتها مع الرجال محاطة
بهالة اخرى ، هالة الاسطورية . يزيد في وقع الشيء
لا ما نعرفه منه بل ما نجهله ، وخصوصاً في الحب :
انه نفسه جسدياً ؛ على ان ما نتخيله من عالم ذلك
المجهول الذي سيواظننا عليه هو الذي يذكرنا
النار فينا .

- « المقلبات طيبة ، لا تشبع » . كذلك حال
الحب العذري الذي تتوهم الشبع فيه ، اما الواقع
فيخالف ذلك . ومن شاء ان يكون فوق الواقع
كان دونه ، كان مبتدئاً في مختبر الحياة . فالام
تعرف ذلك لكونها اما . انها « حاذقة » . هي
تعرف ان لا راحة للحب ، بشرياً ، الا في الام .
فالحب نزوة الروح المتجسدة ، لا نزوة الروح
المجردة . وليس عرساً اقتران امرأة بروح رجل .
الرجل الروحاني اسطوري هو ، لا وجود له الا
في الوهم ؛ والوم لا ينعغ غلة المرأة الا اذا استمر
وهماً . كأنا الرجل اقرب الى الروح ، والمرأة
الى الجسد . فالروح المتجسدة هي الانسان ،
والرجل المتزوج - المتجسد في امرأة - هو الذي
يخلق الحياة . يخلقها بموته ، اي بتضاغره ، كما تخلق
الروح الانسان بتجسدها ، اي بالخط من قيمتها في
اتحادها بجسد .

- انت البريء تجهل ان اجتماع جسدين هو
كاجتماع انايين من فخار : ينكسران . امك
تعرف ذلك : « فاحتضنت الجسد الذي خالته لن
يعرف ارتخاء » . الا انك امتنعت ، ارتخيت ، فما
نفع قرنك ! من هنا ثورتها عليك ، فالثورة حب
معكوس . عدم الاستسلام الاخير يبقى على الحب ،
يدعه توقا الى ما لا ينال .

- سؤال : « احسبتك فارساً وسيطاً »
يحمي عذراءه من السوى ومن ذاتها ايضاً ؟ (عدو
الانسان في ذاته اولاً) . تجهل ان قرنك ليس
سيفاً للحراسة بل سكة للحرارة ؟ ما من حياة الا
في التفجير ، في اختراق الحصون التي تظن ان
من واجبك حمايتها . فموت العذراء حياة ، وحياة
العذرة موت . انها سنة الطبيعة التي تعرفها المرأة

كالحياء الرمزية . اما الاسطورة فلا تموت لان البشرية تحتاجها فتبقي عليها . اترى المسيح اسطورة؟ اترى كانت اسطوره من حاجتنا اليها؟ ثم ان الاسطورة غالباً ما تنقلب عكس ما كانت عليه : كنت مثال العفاف ، فما ان مت حتى اصبحت مثال الخصب . انها ظاهرة الاعتراض . من هنا كان موتك مزدوجاً : موت عذرتك ، وموت حقيقة اسطورتك .

ما اسميها تزويقات كان في الحقيقة تعليقات هامشية هيأت ان ترتفع الى ما في متن القصيدة . الا اننا نظرنا ذات يد في مواكبة الجارف الشعري وانارته جانبياً . ولرب كلمة فتحت كهفاً تتكدر فيه الكنوز ! ثم انتنا لن نستمر على ذلك في القصيدة الثانية ، رغم ما يلحف بنا من شوق ، لانه يطول بنا المجال اكثر مما تتسع له الصفحات القليلة المكرسة لباب المراجعات . والقصيدة الثانية التي يحمل الكتاب عنوانها هي امتداد للاولى في اجواثها ومرامها . لوحاتها اربع ، شديدة الحبك ، تردد ماخيرها على اوائلها في تماسك عجيب . ويدخل فيها شخصان جديدان : الزوجة والابنة .

اما اللوحة الاولى فشأنها مزدوج : انها لادخال الشخص جميعاً وتقديمهم منذ البداية كما سيؤولون اليه في النهاية ، كأنما المأساة والمحنة تلحقان ، مرة اخرى ، في تضاعيف هذا الكتاب . وانها لتخطيط الاطار الذي تستمر به نار المعركة ، معركة الانسان الممزق بين وجوده وماهيته ، بين السقطة والخلص ، بين ما هو عليه وما هو اليه .

واما اللوحة الثانية فهي من نسج الذاكرة . بها تعاش المأساة مرتين . وهل للفنفي غير ذاكرته ترده الى مرابع الطفولة ، الى وطنه الجغرافي (لا ننس ان الشاعر فلسطيني) ، الى المذرة التي كان ينشدها على ضفة البحر المقدس فيتصورها في فتاة احلامه « المتعذرة الوجود » ؟

بدلاً من ان تكون انت الفاتح ، مريق الدماء ، ككل ذكر ، كانت هي الانثى الفاتحة التي تريق دماءك عند عتبة رحمتها ! ولخير لك لو ظفرت بمذراء ، فاقله كان لك عنفوان الشرقي المتزمت الذي يريق الدماء ! اما وانك جئت بعد ابيك فقد « انزاحت عن قم جب بغير قرار » .

- « لمن الطراد المستديم ... لها ؟ وللفاعجة . » فما كتب منذ البدء هو لا محالة واقع . والهروب خدعة بطولية . فكلنا الى المرأة نسير ، والى الفاجعة . وليست المذراء في الحقيقة سوى « شبه عذراء » (قد تكون عذراء بمجدها ، اما بروحها فلا) . الاعذر ينتمل لعذرتة ، فالعذرة انتحال لا واقع . والقصيدة كالحياة : منها « مطمطتها » فانها ستنتهي الى ما هي اليه . وهي الا لمعرفة التي نجعلنا ندور ، فاذا عرفنا كانت نهايتنا الدامية (شجرة معرفة الخير والشر ، ثم المعرفة بمنهاها التوراتي) .

- دمة الام اثنتان : عليك وعليها . وقد تكون ايضاً دمة الخداع النسوي . اما بسمتك فاجنبية ، لان الطبيعة لا تعرف سوى الدموع والفتوح . وكيف نشجب المرأة و « نرشقها بسنان ليس سنان المحبة » ؟ انها مسيرة لا مخيرة . انها سلاح الطبيعة لاستمرار النوع . وهي التي تغدق الحب في الموت والموت في الحب (الموت هو السقطة بمعناها الميتافيزيقي ، وهو بالتالي عربون الفداء ، فبدونه لم يكن مسيح ليصلب) .

- كلنا شهيد وشهيدة ، مسيرون ، يقودنا الجنس . ومهما امعنا في الابتعاد فاننا سنتوقف يوماً لدى الباب نفسه ، نفتحه او نكسر قفله . فتشبهق المرأة وتكون شهقة اقوى من شهقة الرجل لان حساسا واحساسا اقوى ، ولانها سبب السقطة الاول ، وبالتالي الموت ، ولانها تعرف ان ملايين الحيات العتيقة التي ستولد منها هي الى السقطة ، الى الموت .

- يكون الموت عندما تفقد الفذوية والتفرد ، عندما ينبت لنا قرن ثان . موت رمزي

قد تكون اللوحة الثالثة قمة هذه القصيدة . بها يجتمع المراك بين الجسد والروح في كرك وفر متواترين . فنرى الشاعر يطارد عذراء ، ثم تحور قواه « بعيداً عن النبع ، قريراً باحضان العدم » ، كأنه جيل من الانفة والتعفف : « الى القمة الجرداء اختزلت نفسي » . على ان رؤى اللحم تلاحقه لان الهرب من الشيء هو هرب اليه ، وهو استعار اجوائه في الجسد وفي الخيلة ، حتى اننا قلنا نغم في الادب العالمي بقطيعته على لوحة يرتفع فيها تصوير الشبق الى هذا المستوى من العنف . وما اشبه لندن بسدوم : « ولندن ... مرحاض كبير لا يرتوي » . فربة الشاعر فيها ليست عدم اكتراث بل عدا ، شأنه بذلك شأن الكركدن بالصيادين . وثمة ايضاً صورة للشاعر فاجعة : « في الثلاثينات شعبان ايامي . شعبان ، تخمان ، زحان ايامي » . « شقائي اصيل هنائي مزور » .

ثم هي اللوحة الرابعة والاخيرة ، لوحة النور وراء الحجاب . انها صلاة ترتفع الى اله المؤمنين لا الى اله الفلاسفة . صلاة كلها اسئلة تلمع وتقطع كشفرة السيف في فجوعها الاصيل : « لم تأبى ان تكون ايماناً حتى اللبلة الكبرى ايام تعارف وتحضير وبناء ؟ » « لم تبعثر الاضواء الصغيرة ... ؟ » وكلها استغاثة بالذي يقهر « الملك الكالغ » : « اعني . اعني » .

ملاحظاتنا التي بعثرناها بذرا حان لنا ان نجعلها اضمام . وعوداً على بدء نستدرك الفواية التي نبهنا اليها ، وهي ان نثر الحالة الشعرية ، كما وسوس لنا الشيطان بطرف من ذلك ، هو ابطال لمفعول السائل الشمري : يبقى السائل وتتبخر الكحول . لقد لفت فاليري انتباهنا الى هذا المنكر بقوله : « اجمل ما في العالم من شعر ينقلب تافها لا ضابط له ساعة تصدع حركته التناغمية ويفسد جوهره الجرسى ... انه آتخذ جثث للتشريح وطيور ميتة » . ولرب قائل ان شمر توفيق صايغ قد طلق الاوزان الخليلية وهجر

القوافي فلم يبق اي سبب يشده الى الحركة التناغمية والجوهر الجرسى اللذين تحدثت عنهما فاليري . قولة خاطئة ، لان هذه العروض الحرة الطليقة تنتظم في ابيات محكمة البناء ، على هدي من ذاتها لا من ذات التفعيلات المستعارة ، فتندخل وتتشابك ويوقظ بعضها اصداً بعضها الاخر ، متجاربة ، متعددة الاصوات ، بعيدة عن الوتيرة الواحدة التي عانى منها الشعر العربي ما عانى . وهي ، الى ذلك ، ليست للفناء على منصة او للتجديد على منبر بل للترتيل الجوقي الذي يخلق حالة للقصيدة قدراء . فلربما كانت حركة هذا الشعر الحر تعيب عن النظر ، الا انها دائمة الحضور في مجال السمع . ثم ان في هذا الشعر لجديداً ، وهو التفات نهائي من نطاق التمنمات والتوريات البديعية المكرورة . انه افتتاح على عرض البحر . كأنما الكون الارحب مجاله ، لا الجنينة الصغيرة المسجبة . فعبثاً تبعث فيه عن الورد والخيزران ومطافر الماء والعنادل !

هذا ، واما الارتباعات والتعليقات والتعليقات التي عمدنا اليها على هامش هذا الديوان ، فانها ليست من متنه بشيء ، لذلك لسنا نشق من مغبتها في تحطيم الايقاع وتبخير الكحول وتغليب الايحاء . انها المواكبة لا للاستبدال . وعليه فامنتنا الا يكتفي القارئ بهذا القدر اليسير بل يتناول « معلقة توفيق صايغ » ويفتح دفتها الحارتين كما يفتح شقي الجرح الطري . عندها فقط تتكشف له اجواؤها على حقيقتها : المأساتية الشاملة ، والدين ، والخطيئة ، والخلاص ، والحب الجنسي ، والمرأة ، والاسطارات .

اما المأساتية فانها تلف الديوان كله كأنها المصير . من هنا كانت حركتها تتقدم حيناً وتتأخر احياناً على غرار كل مصير فردي ، الا انها لا تتوقف كأنما هي في زمن ابدى . فما ابدنا عن التشاؤم الذي طالما اخذه السطحيون على توفيق صايغ !

واما الدين فيقينا انه ، بالنسبة لشاعرنا ، هو

نموذج شأنها لدى الكثيرين من الشعراء ، حتى اننا لنقول ان شاعرنا لا يلاحق المرأة التي يحبها ، بل المرأة التي يحب ان يحبها . ثم يتبادر الى ذهننا سؤال ثانوي نظرحه على عواهنه : أليس بين القصيدة والمرأة ما هو بين الشعر والمذراء ؟ فالقصيدة لا تكون الا ساعة يتجسد الشعر بالكلمات ، كما ان المرأة لا تكون الا ساعة تبطل ان تكون عذراء . فهل المذراء « المتعذرة الوجود » هي رمز ؟

والرموز كثيرة في شعر توفيق صايغ . انها ترتفع (او تنخفض) الى مستوى الاسطارات . ذلك يعني انها تواكب وجودنا منذ فجر الوجود ، تهيمن علينا كما يهيمن الخوف على من يسير في الظلام رغم يقينه انه ليس من مدعاة للخوف . قال بيري ايمانويل : « الاسطارات صور رحمة » . فمن توصل اليها توصل الى الفكر في ينبوعه . وهي هي التي تجعلنا نتمرس فعلا بسيكولوجية الاعماق كما سبقنا بالقول . أليس الكركدن ، مثلاً ، اسطارا يرمز الى الرجولة بقرنه الوحيد ، والى المسيح بتفردته ؟ كأنما يرجونه يطلب الحب الدافئ ، ويتفردونه ينشد الحب الهامى . ان بينه وبين الابل في الكتاب المقدس لشبه . والكتاب المقدس معين لاتنضب رموزه بالنسبة لشاعرنا : هنالك سيف نار الفردوس ، والحوت ، وشجرة المعرفة ، وسدوم « المدينة » . اما الملاحظة الاخيرة في هذا الباب فهي ان توفيق صايغ قد عمد ، على ما نظن ، الى الاسطارات لا الى آلهة الاقدمين لان رمز الاسطارات ابدى واشمل . فلآلهة هياكل تحدهم في المكان فلا تدعم على رحابة العراء ، وكهنة يضعون لهم غمامة حول الاعين موحدن نهجهم في الاستيعاب فلا يدعونهم على ثرائهم الاصيل .

رواد طريقه

الرد الوحيد الذي يمكننا ان نجبه به عدمية الزمن . اي ان هذه عدمية الطبقة التي ينقشها الشعر والرواية والمسرح والفلسفة وجلّ العلوم الانسانية في مختلف انحاء المعمور لا مناص منها الا اذا اوجدنا لنا منفذاً دينياً في تضاعيف عملية الخلق الشعري . وهذا المنفذ مسيحي جوهره لان سيكولوجية الاعماق التي يتمرس بها شاعرنا تشده ، في الآن نفسه ، الى الخالق والى الخليفة ، الى المسيح الذي يجمع بين الاله والانسان ، بين الاله الذي تأنس والانسان الذي تأله . لذلك كانت الخطيئة ، او السقطه ، او المعصية ، « حجاباً » بيننا وبين وجه المسيح من جهة ، وبيننا وبين اغيارنا من جهة ثانية . وكانت ايضاً جماعية ترمز المدينة اليها : لندن هنا كما هي سدوم في العهد القديم ؛ كأنه ما من خطيئة في الحالة الصرف ، في حالة الروح وحدها او الجسد وحده ، بل فيهما متحدتين ، وفي الجماعة اكثر فاكثراً .

وكانت الخطيئة ، اساساً ، في الفعل الجنسي ، في الشبق الفاجر فمه وفي لزاجبة اللحم . لذلك استقطب الديوان هذه النقطة ودار حولها وجمع الخلاص في التخلص منها ، لا بالتكشف والتنسك واعتزال العالم ، لا بالسعي الذاتي ، على اهميته ، حتى ولو كان وراءه عرق دم ، بل بسعفة الله وحده التي قد تحبونا الصلاة اياها . فما الخطيئة اذا ؟ انها اتحاد الشبق بالموت (او بالحياة) كما تحققة المرأة في منطق كيائها . والشبق والحب عدوان متواطئان يتشابكان معاً في حالة الخطيئة المشتركة . فلا غرو اذاً من ان نرى المرأة تهيمن على هذه « المعلقة » ، لانها الكائن الذي يؤلف في اعماقه بين الخطيئة والحب . ولا غرو ايضاً من ان يلاحقها توفيق صايغ ببناد واصرار محاولاً ان يخلصها وان يجد الخلاص بها . لذلك لم تكن ابياته ، رغم ظاهرها ، تنديداً بالمرأة بل توكيداً عليها . والمرأة في هذا الديوان هي